قيد حديدي يفرز رعباً وترقباً مشوباً»[٨٣]، وبدت للصحراء مجرد «قلب معدني صغير في جسد عملاق»[٨٤] هو «الشيء الوحيد الخارج عن الزمن الحقيقي»[٨٥] الذي يرفع «ذلك الجدار الذي لا يخترق والذي يرفعه المجانين عادة بينهم وبين العالم»[٨٦]، وما أن يطّرح حامد ساعته اليدوية ـ قيده، «لتخبط بصوت مخنوق على الارض»[٨٧] ولتموت، وحيدة، فوق رملٍ الصحراء، حتى يشعر أنه اصبح حراً في مواجهة العالم، بلا قيد من ماضٍ أو حاضر عاجز، لأن اطّراحه الساعة ـ القيد وقبر الزمن، هو أشبه ما يكون بخلاص من «قشرة ناشفة لدمل قديم»[٨٨]، هكذا يصير حامد نداً للعالم: «لقد شعرت، من ثم، براحة أكبر وأنا أنفرد بالليل دون وسيط. انهدم الجدار فجأة، وأصبحنا ندّين في مواجهة مباشرة لعراك حقيقي بسلاح متكافىء وبشرف»[٨٩]. وتصير خطواته الواثقة الطليقة هي وحدها المقياس الحقيقي للزمن وهي وحدها التي تحشده بالحياة، ويصير العالم ـ الزمن، مسافة «من الخطوات غير مربوطة بعقربين صغيرين»[٩٠].

وفي سياق المواجهة المباشرة مع العالم تحدث التحولات العميقة في وعي حامد، وتتكثف هذه التحولات في سؤال الهوية: من أنا، ولا تتحقق الاجابة عن هذا السؤال الا بحوار الذات، وحوار الآخر ـ العدو، وفي سياق «زمن الاشتباك» حيث في الصحراء يلتقي حامد بذاته، مثلما يلتقي بعدوه ـ الجندي الاسرائيلي، وحين يقرر حامد الاستمرار في المواجهة، ويتخلى عن قرار الذهاب الى الأم ـ الملجأ ويواصل ترسيخ قدميه في أرض الأم ـ الوطن، ويرفض قتل الجندي الاسرائيلي قبل وصول الدورية العسكرية الاسرائيلية بأكملها ليؤكد انه لا يواجه فرداً اسرائيلياً بل مؤسسة عسكرية اسرائيلية سرقت فلسطين وشردت أهلها، حين يحدث كل ذلك، وحين يقع فعل الذروة ـ النهاية: قتل الجندي الاسرائيلي بالطريقة التي أرادها حامد وخطط لها، يكون حامد قد وضع خطواته الواثقة على الطريق المؤدي للاجابة عن سؤال الهوية والخلاص من زمن الموت، مؤكداً لنفسه، ولنا، أن الوطن هو المجال الحيوي الوحيد للزمن الرأسي الحاشد بالحياة الذي فيه تؤكد الهوية حضورها، وتواصل تخلقها في أفق مستقبل مفتوح.

وقبل هذه البرهة التي يصعب القبض عليها، تكون مريم قد قاربت نهاية الشوط في بحثها عن ذاتها ومستقبلها؛ ذلك المراوح بين أزمنة ثلاثة: زمنها الأفقي الذي فيه ماضي حامد وماضيها، وحاضرها، وزمن زكريا المائل الذي يحاول فرض حضوره عليها، وزمن حامد الرأسي الذي يدعوها الى الانخراط فيه. وتكشف المقارنات الدائمة التي تجريها مريم بين هذه الأزمنة عن توترات بالغة الحدة تنبىء بتحول في الوعي يقود الى فعل يجسّده. وينبثق هذا التوتر من الحضور الدائم للساعة ـ النعش، ولوقع خطوات حامد، ولاغراق زكريا في نومه، واستغراقه في زمنه المائل. إن الساعة النعش لا تكفّ أبداً عن اعلان حضورها في وجدان مريم: «كأن العكاز المفرد عثر على ممر ما فمضى يجربه كدأبه كلما خرجت من الغرفة»[٩١]. وخطوات حامد لا تكف عن الحضور والاعلان عن تناقضها الحاد مع دقّات الساعة ـ النعش، على امتداد السرد، انها الخطوات التي تدق بثبات أرضاً بعيدة، ولكنها تدق، عبر وجدان مريم ومشاعرها، في قلب البيت، وفوق جباه القابعين فيه، وفي المخيم، وفي غزة، وفي كل مكان للنفي والموت: «وكان حامد يبتعد، يدقّ فوق جباهنا خطواته العنيدة بلا رحمة، فيبدو وقد ذوّبه المدى، ولم يبق منه إلّا أصوات خطواته العنيدة التي لا تنتهي، آخر قطار غادر المحطة المهجورة، وتركنا على رصيفها المحطم، نستمع الى صوت الصمت المفعم بالغربة، والوحشة والمجهول. يدقّ. يدق. يدق»[٩٢]. ولا يجيء ادراك مغزى خطوات حامد الا بالمقارنة مع الساعة ـ النعش من حيث كونها تذكرة دائمة بالماضي الميت ونعشاً «يسجن الحاضر في الماضي»[٩٣]. ونعشاً يحتوي مريم نفسها لكونها حبيسة